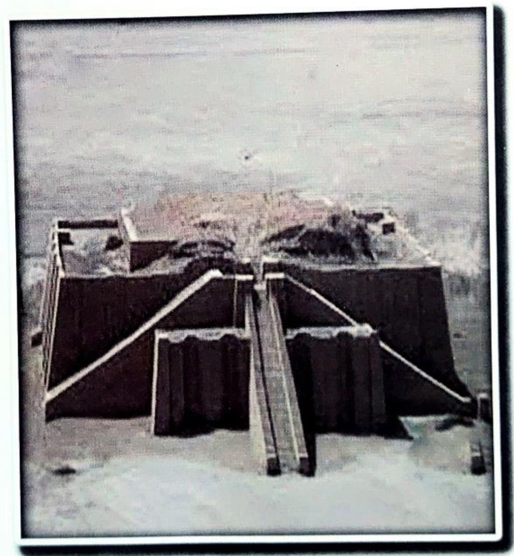








ليث الصندوق

عنوان الكتاب / بيت في أور

ألمؤلف / ليث الصندوق

ألطبعة الأولى – بغداد 2012

ألطباعة الألكترونية والتصحيح والإخراج الفني : دار الشؤون الثقافية العامة

ألعنوان :

وزارة الثقافة – العراق – بغداد – شارع حيفا – هاتف 5373307

ألبريد الألكتروني baghdad@mocul.gov.iq

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

(708) لسنة 2013

بيتٌ في أور

شعر

ليث الصندوق

ألطبعة الأولى – بغداد – 2012

من إصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية 2013

نوارسُ البابِ الشرقيّ

تأتي النوارسُ

كالفوانيس ِالمضيئةِ مِن سراديبِ الخطوبْ

والصبحُ يغسلُ في العيون قميصَهُ المرقوعَ بالقتلى

والنخلُ يهرمُ تحتَ أمطار الحروب

يلقي الظلالَ الذاوياتِ وراءَهُ

ويسيرُ نحوَ النـهر

يسقي ما تيبّسَ في عَراجين ِالنبوّةِ مِن قلوبْ

وتطيرُ خلفَ النخل ِأسرابُ الحَمام

بحثاً عن المعنى الذي

قد حرّرتهُ بلاغة ُالأهاتِ من جُرح ِالكلام

تأتي النوارسُ مثلَ أثمار المصابيح ِالتي

ملأتْ شُجيراتِ الظلام

تأتي ، وقد دَلّتْ على أكتافِنا

أقدامَها التعبى ملائكةُ السلام

كنا ، وما زلنا بسجن جلودِنا وضلوعِنا

نتهيّبُ الدنيا ، ونرصدُ أهلَنا خللَ المَسام

- **هل نحنُ موتى**

لا نحسّ بأننا نُكوى بجمر

قد حملنا في الجيوب

- **أم إن أيدينا بنا قد أضرمتْ نيرانها**

لتُطهّرَ الأرواحَ من دَرَن ِالذنوب

أنّى التفتنا ، ليسَ غيرَ اللافتاتِ السّوُدِ

كالغربان ِتنعِقُ في الدروب

******

من غرينِ النـهر المبقعِ بالشظايا

تخرجُ الأسرابُ تمسحُ

عن صبايا الموجِ أرديةَ السُخام

تأتي النوارسُ

مِن حنـاجرنـا التي يبستْ لفرطِ الصمتِ

حتى صارتِ الـهمساتُ

تطلقها بحفلِ الموتِ نـاياتُ العظام

قمرٌ على الضفتينْ

قمرٌ يلملمُ ما تكسّرَ من قلوبٍ

في سلالٍ مِن أثير

قمرٌ يُعيدُ قذائفَ المُتحاربينَ إلى المدافعِ

وهيَ في الرمقِ الأخير

وجموعُ نـاياتٍ تُردّدُ حَشرجاتِ الميتينَ

وقد أصيبوا بالزكام

**

من طيّةِ اللحفِ الهريئةِ

يقذف النيرانَ بركانُ الجَسَدْ

تنشقّ تحتَ وسَادِنا الأرضُ التي

من عبءِ خطأتِنا تعاني من مَيَدْ

حِمَمٌ هيَ الأحداق ِتطلقُ في الفضاءِ صُهارة َالأحقاد

وتحدّ في الأجفان ِسِكّينَ الرّمَدْ

مِن قبعاتِ الغيم يخرجُ ساحرُ الرعدِ الذي

في اعيُن الباكينَ ينفخُ قيئَهُ

ويُحيلُ لمّتَنا بَدَد

من بابنا المكسور تدخل كلّ ما في البحر

من سُفن ِالأخوّةِ والعُداة

تُخفي بأشرعةٍ مُدمّاةٍ عواصفَ من برد

مِن اينَ نخرجُ ؟

والدروبَ يسدّها الموتى بأعينِهم

لم يبقَ في الإعصار مِن بيتٍ لنا

لم يبقَ في الزلزالِ من كَهْفٍ ، سوى فكّي اسَد

... لكنّ صبحاً فوق هامتنا يُعصّر نورَهُ الضافي

نوارسَ من زبَد

**

في أكؤس ٍهيَ من (شواجير) البنادقِ

يسكبُ المتحاربونَ الشايَ ممزوجاً بنكْهاتِ العِتاب

للإخوةِ الأعداءِ

في ضفةِ الحضور الرخو ِمِن نهر الغياب

وتذوبُ مثلَ ملاعق ِالحلوى الزوارقُ

في سَوَاق ٍماؤها صنوَ الرضاب

تأتي النوارسُ مثلَ الأفِ الأكفّ

لتطلقَ الشمسَ الحبيسة َفي النقاب

أبو نواس
يبحثُ في العالمِ السُفليّ عن جنان

لمّا أعد أذكرُ من أيامها

غيرَ يد مشلولةٍ

تمتدّ في الليل إلى مِعزفها

باكيةً جَمالها الذائبَ والأصدقاء

ولم أعدْ أعبثُ بالشَعر الذي

قد حوّلته لهشيم يابسٍ عَواصفُ الشتاء

تكسّرتْ أصابع البيانو

ولحننا القديمُ

ما عادتْ له في الروحِ من أصداء

عاريةً

إلا من الهمّ الذي

تقصّ من عتمته قُماش

تقاومُ الوحشة بالغناء

لعلها تثقبُ بالصوتِ جدارَ الغواش

عادتْ إلى الغابة بعدَ المَطر الأطيار

فلم تجدْ مأوى بقرب النار

ولم يعُدْ يتبعها الدفءُ إلى الفِراش

فراشُها قد ذابَ في الجليد

وانجمدتْ شِفاهُها كذائب الحديد

******

أربعُ طلقاتٍ بقلبٍ حالم

قد أفزعتْ بلابلَ الأحلام

وواصلَ القناصةُ اللصوصُ لِعْبَ القتل من مَخدَعِهم

ليطردوا المَلال

أضرمَ ما شاءَ لهُ جُنونهُ

وعلقَ النساءَ كالأثواب في حِبال

مَرّ على حرائقِ الشاعر ألفُ عام

خلالَها

قد أطفأتْ عواصفُ النسيان

ما أضرمَ في الأكباد

ولم يزل للآنَ من ساروا على طريقه

يُخفونَ في صدورهم قلباً من الرماد

**

ننام في شرانق الخوف

كما الأمواتُ في الأكفان

ونُسدلُ الستائرَ السودَ على الحيطان

جنانُ ما عادتْ من المنفى الذي

شيدهُ من لوثة السُكر أبو نواس

وعادتِ الريحُ مع العناكب السامة والذئاب

وعادت الأفعى تصبّ السمّ في أكواب

رايتهم

يسترجعون كلّ ما مصّوا معَ الدماء من ذكريات

رأيتهم يبكونَ

لعلها دموعَهم

تُنبتُ ما قد بَتروا من جسدِ الحَياة

******

جنان طوّتها يدُ النسيان

في صُرّة الدموع والأحزان

من دون أن تُدركَ أنّ الذئاب

تحتَ لِحَافِ العُمر تُخفي الناب

وأنها لربما تذكُرُني في الرّمَق الأخير

يئِنّ من ألامِها السرير

فتطفيءُ الأضواء

في إنتظار المَلَكِ القادم بالحبال من مشانق السماء

وربما تذكرُ أياميَ

إذ كنا معاً نغطسُ في قارورة الرضاب

واليوم ما من كفة تُدني لها بالماء

وربما تنتظرُ الأحفادَ

أن يأتوا لها بخمرة السراب

في كوخها القديم وسْط َغابة

ينخرُ سوسُ القهر في اشجارها الصمّاء

فأيّ أقدارٍ تُرى تربضُ خلفَ الباب ؟

**

ماتَ أبو نوَاس

من قبلِ أن تمضّ نارُ الخَمر في الحواس

ولم تزل جنان

حُوريةً

تغيبُ في أرواحنا

ثمّ تعودُ مرّةً أخرى إلى الظهور وسْطَ َالكاس

ألحسين يخرج ثائراً من جديد

إنـهم كالمُرابين

عبرَ المزاداتِ ينتقلون

بأثوابهم وهيَ مُبتلـةٌ باللعاب

حقائبُهم مثقلاتٌ بأشلائِكَ النازفاتِ

وقد مَنحوا كلّ عضو رقمْ

(... وما زالَ جسمُكَ ينزفُ

بالرغم من إنـهم ملّحوهُ بأحقادهم منذ ألفٍ

ليوقظَ جوعَ وحوشِ العذاب)

كلما قطعوا منـهُ عُضواً بَكَوا بألمْ

كأنكَ أنتَ الذي كنتَ تذبحُهُم

و تقلِبُ فوق المناضِدِ أكؤسَهم

فينفجرُ الدمُ من طافيات الفقاعاتِ وسطَ الشراب

وفي ظلمات سراديبِهم يُفرغونَ الحقائبَ
مُستعرضين جراحَكَ للصُحُف الصُفر
أو عَدَساتِ السأم
ألرجالُ الدُمى ذهبوا
وأتى أخرونَ يُغَطّونَ سوأتَهُم بالعَلم

(هدوءاً ... هدوءاً
هيَ الأن نائمةٌ
على رأسها جرسُ الحُلم يُقرعُ
لكنها لا تفيقُ
خدّروا عَصَبَ الحُبّ كي يُولِدوها
ولم يكُ مولودُها غيرَ إطلاقة في جدار الرحم)

هيَ الحربُ تفتحُ أبوابَها
لتدخلَ منها الخيولُ الهزيلة
(ألخيولُ التي قد خُدعنا بها
فكنا نُعِدّ سرُوجاً لها وركاب)

وتُطرَدَ منها – على عربات النعُوش – السيوفُ الذليلة

(ألسيوفُ التي ساقتِ الشعبَ للسَلخ سَوقَ الغنم)

ويختلطُ الداءُ بالداءِ

حتى لتفقدَ اسنانَها الريحُ تحتَ الدُرُوعِ

وتجري السواقي بُصاقاً ودم

وما بينَ منسوبةٍ للبغال

ومنسوبةٍ للحمير

تُضيّعُ انسابَها الصافِناتُ الأصيلة

ألحروبُ العقيمةُ تحسُدُ مَن يُنجبونَ

فتأكلَ أبناءَهم

مثلما أكلتْهُم بدائرةِ الأمنِ أفعى التّهَم

بعضُهم صارَ طيراً

يُنقّرُ بحثاً بأيّ القلوب قد اخفى هديله

واخَرُ يقرعُ كلّ مساءٍ نوافذَ جيرانهِ

ليُذكّرهم :

أنهُ منذُ أنْ قَلَعَ القائدُ – الربّ مقلتهُ لم ينم

ولكنهُ القائدُ – الربّ ما عادَ ربّاً
فقد قوّضَ الأنبياءُ الجديدونَ معبدَهُ
وألقوا بألواحِهِ للحريق
وصمّوا مسامِعَهم للصُراخ النُحاسيّ
يطلقهُ في المَصَاهِر الفُ صَنَم
ولكنهم مثلما كان يفعلُ عادوا
يخطّونَ فوقَ ظهور الشعوب بذاتِ القلم
فلم يرجعِ الراحلون إلينا كما نحن نعرفهم
وقعوا بدمائِكَ صَكّ براءَتِهم
جاعلينَ القبورَ شهوداً
ومتخذينَ الظلامَ حَكَم
ألرجالُ الدُمى ذهبوا
بعدَ أن حاربوا جيشَ أوهامِهم بالسُباب
والذينَ أتَوا شايعوهم فصاروا
بأقدامِهم يَلبَسونَ الرِقاب

(في لندنَ القهوةُ العربيةُ أشهى

وطعمُ السيكارة
تَسكَابُ مِلعقةٍ من حنينٍ بمجرى الدماء
ولكنها حين تجمعُ قهوتَها بالسيكارةِ تبكي
كمنْ هو يأكلُ من لحمِهِ بنهَم
كانتِ الشَرطةُ الدوليةُ تدمُغُ فوقَ الجباه
وتنبشُ بحثاً – باقبية الصمتِ –
عمّنْ يُهرّبُ خمرَ الألم
فقد افلحَ القائدُ – الربّ أن يستبيحَ السماءَ
ويرسلَها للمنافي البعيدةِ مَحشورةً في رُزَم)

خرجوا من حرويكَ منكسرينَ ، ومنتهَبينَ
فما كسبوا عندما ناصروا الحقّ رشفةَ فم
فليسَ غريباً بأنْ ينقضوا جدولَ الضَربِ
او أنْ يُعيدوا الحساب
وها هم يبيعون لحمَكَ ما بينهم
وقد يُرسلون برأسِكَ – عبرَ البريد –
يُعلّقُ في ناطحاتِ السحاب

وأنتَ من الموت تنـهضُ كالشمس منذ قرون

لتُلبسَ خصمَكَ أثوابَكَ الدامياتِ

وتُسلِمُ من بايعوكَ وباعوكَ للغد

حيثُ امتحانُ الضمير

– أأنتَ العراقُ الذي ينـهشونـهُ فوقَ موائدهم ؟

– أم الشعبُ أنتَ الذي بتروا

– خوفَ أنْ يتقدّمَهم – قدميهِ

فقامَ على ركبتيـهِ يسير

وقد يبترونَ لـهُ ركبتيـهِ

فيمنحُهُ الصَبرُ أجنحةً ويطير

وما زلتَ تمضي إلى الله زحفاً

فلا تتلفتُ للسابقين ،

ولا اللاحقين

وقد أرجَعوا زمنَ المَالكينَ

فصارَ منضالـهم يتقلّدُ سُوطَ الأمير

فداءٌ لحزنكَ يا ابن البتول

ويا من رضعتَ المحبةَ من شفتيّ الرَسول

ويا من نسجتَ عمائمَ صَبرِكَ

من عوسج الرفض

لا من حرير القبول

(ألمُخبرونَ الذين بفنجانها نزلوا بالمِظلات

قالوا : بانهمو اكتشفوا

في بقيّة فنجانها قطراتِ سأم

وأنّ مواليدَها الألفَ

فرّوا من الحربِ للمدن الأجنبية

مُلتصقين على جسمها كالقَرَادِ

من الإبط حتى القدم

ومَن عرفوها يقولونَ : لم تكُ قد أنجبتْ

ولكنها تتناسلُ من بعضها

كما تتناسلُ من لفّةِ الشاشِ أفعى الألم

عندما غطّسُوها بتيزابهم

قلتُ : كيفَ لها أنْ تذوبَ ؟

الم تكُ أخِرَ ما في حُطام القلوب من البِسماتِ
وكلّ الذين يسومونها الخسفَ
ليسوا سوى بُقع من شحم)

أيُرضيكَ أنكَ من كل ما في الدُنا من جنان
تخيّرتَ تعرجُ عبرَ الحريقِ العراقيّ نحوَ السماء ؟
وغيرُكَ يركض مستبقاً ظلهُ
ولكنّ سُوطَ مَطامِعِهِ سوف يقتادهُ للوراء
أيرضيكَ أنّ سواكَ يرى وجهَهُ في المرايا
ويبصقُ فيها ؟
وانتَ كما النجمُ تلمعُ في بركةٍ مِن دماء
أيُرضيكَ أنكَ تستقبلُ الشمسَ بينَ يديكَ
لتقشعَ عنها غيومَ البكاء؟
وغيرُكَ يطردُها من نوافذِهِ
مخافةَ أنْ يتفجّرَ ما حولَهُ من هواء
أيُرضيكَ ؟ أم لا،
فأنتَ دخلتَ إلى مُدُن الخُلد

تنقضها، ثُمّ تُنشئُها كيفما شئتَ انتَ
وليسَ كما الخلدُ شاء
دخلتَ لها فاتحاً
تحتَ رجليكَ من عذّبُوكْ
ومن قتلوكْ
ومن نقّعوا بالخيانة أفواهَهُم عندما قبّلوكْ
**
سيدي أيها المُبتلى بالأمل
إنّ خيطانَكَ الذهبيةَ
ننسجُ منها ثيابَ النجاح
وثوبَ الفشل
ثمّ ننكُثُها ، ونعودُ لننسُجَها
ثُمّ لسنا نَمَلْ
هكذا يتمشّى على قدميه الجبل.

أغنيات صامتة

1 - أزهارُ القدّاح

يعزفُ طولَ العُمر

ظناً أن الحَسرةَ َفي ظلمات العُمر هي المِصباح

يَصلبُ فوق عمود النور أصابعهُ

فيسيلُ من الجُرح النازف إشعاعُ الإصباح

تتدمّى راحته

تتثقب من حرّ الدمع الفائر وجنتهُ

وأصابعه تتهرّأ مثلَ قشور التفاح

لكن ليس يكلّ من العزف

ينزفُ

ينزفُ

حتى يلصقَ صمغُ الدم جفنيه

وتطوفُ على نيران وساوسَ هائجةٍ أسرابُ الأرواح

بدأ العُمرَ وأنهاه بحسرة

ملأ الأعراقَ الظمأى

من كأسٍ مُرّة

وبثقب الحائط

قد كان يُديرُ بلا جدوى المفتاح

من أيام العُسرِ

إلى أيام اليُسرِ

يركضُ حيناً

يكبُو حيناً

فبدا كالصيّاد

يراقبُ خُلةَ غابِ الدمع عصافيرَ الأفراح

ومعَ الفجرُ

تحطّ الطيرُ على زنديه

تنقرُ أندى

ما تُنبتُ في الشفة الغضّةِ

أزهارُ القدّاح

2 - ألذوبان في الظلّ

رحلوا

ساحبين الظلال التي أسقطوها

كما يسقط السورُ فوق الرؤوس

ومن خلفهم

خلفوا كِسَراً لهمومٍ من الصخر

ترزح فوق الظهور

وفوق النفوس

**

تُرى ما الذي سوف نذكر منهم ؟

وما سوف ننسى ؟

وقد عصروا ساعةَ السُكر أجفاننا بكؤوس

أيها الخائفون من اليوم

أو من غد

إطمئنوا

فلن تمسحَ الدَمَ

عن دفتر الذكرياتِ

مَمَاحي الشموس

**

أيها الحالمون بفجر

سماواتُهُ حين تسقط لا تتكسّر مثلَ الزجاجِ

له ضحكةٌ كالمطارق

تحطمُ أقنعةً فوق أوجهنا من حديد العُبوس

**

أيها الصابرون

لقد ذاب كالملح في دمعنا القتلة

كما ذوّبونا بتيزابهم

ومن صفنا خرَجَ المُنقِذونَ

لكي يلبسوا جلدَنا كالتروس

3 ـ أغنية للشتاءات الطويلة

منذ خمسينَ عاماً

وما زالتِ السُحُبُ الدُكنُ

تُمطِرُ ناراً

وما زال قلبي على شُرفة العُمر

كالطير يُؤسر

وما زلتُ أخفي بعيني الهشيم

خوفاً من الريح تنبشُهُ

وتكشف ما تحته من دموع

وما زلتُ بالرغمِ من كلّ ثلج السنين

وصخر السنين

ونار السنين

مثل اليتامى على لسعة السوط أسهر

وما زلتُ أضحكُ

بالرغم من جمرةٍ كنتُ يوماً تجرّعتها

ومضيتُ كطير

يظنّ – وتحت جناحيه رشق الرصاص –

بأنّ عُطورَ البساتين من نزفِهِ تتقطّر

**

لم أزل منذ خمسنَ عاماً

أعبّ ، فأصحو

فيا أيها الدهرُ إملأ كؤوسي

لعليَ في ذات يوم سأسكر

**

منذ خمسين عاماً

وشعبيَ مثلَ الصحون

بأضراس من يقضمون الحصى يتكسّر

4 - ألغناءُ بفمٍ مُغلقٍ

كنتُ أغني

لكني خوفَ الإزعاج

أحشرُ كنتُ بكيسِ رأسي

ثمّ أنقّلُ خطوي قفزاً

ما بين جوابٍ وقرار

أنفخ طولَ الوقت بكيسي

فكأني أنفخ في جلدي

أنفخُ

أنفخ

حتى يحملني كفقاعة صابون هائلة

كيسي المغلقُ في التيار

ولكم كانت من فرط صياحي تُثقبُ أكياسي

فأبدلها بسواها

من كيس النايلون إلى الخيش

ومن السطح إلى الأغوار

أتحمّلُ قلة ما آكلُ أو أتنفس

لا يُقلقني

إلا أن تطغي على صوتي أصواتُ المِحفار

وبقيتُ على حالي

أغفو فوق سرير من أكياس

أو أتعلقُ من رجلي فوقَ الأشجار

******

حين مللتُ السجن بكيسٍ

أخرجتُ إلى العالم رأسي

لكني كنتُ بلا صوت

فلقد ألقيتُ بحنجرتي

معْ أخر كيسٍ في النار

5 - مسيحٌ آخر

أمشي وعُكازي صليب

مُتقلبٌ فوق اللهيب

من مِنخري يصّاعد الدخان

والشررُ الكتوم

من مقلتي

تتحرّرُ الرؤيا

لتثقبَ في النجوم

لكنني بالرغم من نار تفكّ طلاسمي

وتُعيدني حُرّاً أحلق في الفضاء

مَيتٌ

تُقلبُ جُثتي

أيدي الذين تساقطوا قبلي بآبار الدماء

مَيتٌ وأحزاني كِثار

مَيتٌ

وأشهدُ من حفيري الشمسَ

تزحفُ فوقَ أشواك النهار

عالمٌ متغيّر

إلى (ع . ي)

مفتوحة بوجهكَ البيبانْ

أدخلْ بدون خشيةٍ

فلم يَعدْ لظلمة الأمس الذي أفزَعَنا أسنان

لا تلتفتْ مرتجفاً للخلفِ

مثلَ مُذنِب

من كَتِفيهِ يطلبُ الغفران

دروبنا ضيقة كانت

ولكن لم تشأ تخنقنا

فلم تكنْ أجسامُنا في إبرةِ الدربِ سوى خيطان

ونحن كنا دائماً مُجبَرين

ياما ادّعينا نشوة َالسُكر

ونحنُ نشربُ النيران

حيثُ تنقلنا ففي طريقنا الشِفار

ولمِ نكنْ نُمنحُ من خيار

**

مرّ على فِراقِنا قَرنان

تغيّرتْ طبائعُ الناس كما تغيّرتْ شُكولهم

وحَالتِ الألوان

صاروا يجوعون كثيراً

وإذا جاعوا فكلّ ما بهم يجوع

أنوفهم تُجَرّ بالحِبال من ورائهم

كأنها قطيع

أذانهم تغدو قُدُوراً

يُطبخ العالم في صِملاخها الفائِر

أو يموع

وتغتدي أعينهم في لحَظاتِ الجوع أفواهاً

ويغدو هدبُها أسنان

ونحن حالتْ مثلَ كلّ الناس ألوانُنا

تغيّرتْ أطباعُنا

ولم تزل أجسادُنا في خدرٍ

تنزفُ تحتَ مِشرطِ الزمان

لكنْ تمهّلْ صاحبي

من قال إنّ حالَنا أسوأ مما كان

وإننا صرنا على أكتافنا نقفز كالفئران

واننا ننام في جيوبنا

بحثاً عن الأمان

ألم نكن نـأكلُ بعضَنا بدون جَوعةٍ

من أجل أنْ تشبعَ في النار مُلوكُ الجان

ولم يكن يَسْلَمُ من أسنـاننا من أحد

إذا أكلنا أهلنا

ننفضُ عن أجسادِها ملابسَ الجيران

وعندما ننشُدُ ،

لا نسمعُ من أفواهنا

إلا زئيراً موحِشاً من عالم الحيوان

صانع الموت

في جيبه من كلّ أصناف القنابل

بعضُها ما كان صُلباً كالحَديد

والبعضُ كان من الرّخام

وسواهما خشبٌ

وقصديرٌ

وجام

يمشي وينثر ما يشاء على النوافذ والحدائق

يمشي

ويمشي حذوهُ جبل الرّكام

مِن عُلبة

هيَ دون حجم الظفر

قد خرجتْ لتبتلعَ المروجَ الخضرَ

سعلاةُ الحرائق

ما من مكان لم يخلف فيه ثقبا

ما من فمٍ

إلا وفيهِ دَسّ قلبا

فكأنّ راحتهَُ مُثقّبَةٌ

وأنّ جيوبَهُ

كانتْ تعاني من زكام

**

بذرَ الجماجمَ حولهُ

غرسَ العظام

وجنى بأيام الحصاد المُرّ باكيةَ الشقائِق

ألكلّ سَمّرَ – حولهُ – فمَهُ بأنياب السكوت

والموتُ صار بمَعسَلاتِ القولِ يَعسُوبَ الكلام

**

لم ندر أيّ خريطة للكُرهِ يحفظها برأسِهْ

حتى الشوارعَ

والمباني

والجسور

قد ظنها خبزاً

فنقعَها بكأسِهْ

في كلّ ركن كان يفجؤنا بقنبلة

يفجّرها ،

ويمضي

لم تبقَ غيرَ أخيرةٍ

قد كان يحفظها لنفسِهْ

ألموتُ صَمتاً

ما كنتُ يوماً واثقاً بكَ

بيد أني كنتُ أحتملُ الصَداقةَ راضياً

أو مُجبَرا

ولربما قد كنتُ عَونَ يديكَ

في نسج الشِباك

ما كنتُ أوّلَ من تخيّرَ موتهُ

وأنا بحسبي لن أكونَ الأخِرا

هيَ لعنةٌ كبرى إذن

فلقد نسيتُ بأن أسدّ نوافذ الكابوس

حين نأيتُ عن ليل البيوت

ومَضيتَ تُبلي الأقنعة

ما شئتَ تلبسُ أنتَ منها

أو إذا ما شئتَ تخلعُ

أو تُعصّرُ أنتَ أشلائي الذبيحةَ في طُشُوتْ

وأنا أرى الذئبَ الذي قد كنتَهُ

أضحى مَلاك

ما كنتُ أرفضُ ما تريدُ

ولم أقيّد رغبةَ الأفعى بروحكَ للحَراك

فشربتُ كأسَكَ كلهُ

من بعد أن أقنعتُ نفسي بالسُكوت

وعلى مسافة خطوة مني

أنا شاهدتُ إنساني يموت

ألجواهري

حينَ رحلتَ إلى الغربة

صارَ الشِعر العربيّ يُفصّل أكفاناً

لدواوين كبار الشُعراء

صارتْ صُناجاتُ الشِعر عظاماً لضباعِ الصحراء

ألملويّاتُ تنحّتْ

أو قلْ ماتتْ من ألمِ التَذكار

فالخمرُ سواقٍ

وسكارى الحاناتِ عرايا

غطسوا فيه إلى الهامات

والنادلةُ الحسناءُ تدور بزورقها

ما بين الغرقى بالخمر

وما بين مراسي الخمّار

بعدَكَ لم تبرأ من عاهات الصمتِ الأوتار

أما الشعراءُ فقد ركبوا سُحُبَ الحُزن ، وذابوا

مثل السُكّر في قدح الأمطار

**

حينَ رحلتَ إلى الغربة

كنا نرحل نحوَ الموت

لا فرقَ إذن بين رحيلك ، أو ميتتنا

فكلانا لن يُبصرَ شمساً

ما دمنا نغطسُ في القار

تذبلُ كنتَ بعيداً عن وطن الأمطار

لكنا في الوطن الغارق

كنا نحلبُ ضرع النار

**

في منتصف الدرب تلاقينا

أعطيناكَ مفاتيحَ محبتنا

أوصيناكَ بأن تغلي قِدرَ الأشواق

من بين المنفيين تخيّرنا قلبكَ

نودعُ فيهِ مفاتيحَ الأسرار

ثقةً منا

أنكَ وحدَكَ تأذن للسُحبِ المحزونةِ بالإمطار

كنا مثلَ الشجرِ اليابسِ

نسحبُ ثوبَ الندمِ البالي

فوقَ خطايا الإبنِ العاق

لكنكَ في صُرّة حزنِكَ

كنتَ ترُصّ قلوبَ ملايين العُشاق

**

بعدَ أن امتلأ الأفق قبوراً

أنظرُ للمدن المبنية بالعِطر

وبالضوء

وبالراياتْ

أحسدُ مقبرة (الغُربا) بدمشقَ ،

فموتُكَ قد أحيا فيها الأمواتْ

ألغرباءُ أشاحوا عني

غطسوا كفقاعات في كأس الألام

وحدكَ أنتَ طفوتَ على سطح الكأسات

وحدكَ أنتَ تُحلي بالشِعر كؤوس الأيام

وحدكَ حينَ أنامُ تهدهدني

فمفاتيحُ جفوني في جيبكَ دوماً

فإذا ما نمتُ تجيءُ لتفتحها

وبها تودعُ ماساتِ الأحلام

**

ذاتَ مساءٍ

يقتادُ الوطنُ المنكوبُ ملايينَ النجماتْ

سيراً نحوَ دمشقَ على الهاماتْ

يقرأ فاتحةَ القرآنِ

ويُخرجُ جثمانَ الشاعرِ من بطنِ الأرضِ

لكي يدفنَهُ في الحدقاتْ

أنا وصديقي

لم نكن لنسيرَ – أنا وصديقي – معاً

نحن كنا - وقوفاً - نموت

ونعصر مثلَ العناقيد أنفاسَنا في طشوتْ

أحمل حزمة َضوءٍ على كتفي

وهوَ يحمل حزمة َضوء على كتفيه

وندخلُ للعب في شَبَكِ العنكبوت

**

وكنا نئنّ

كأنّ على كتفينا الحطام

وأن شعاعَ المطامح يقتادُنا في طريق الظلام

فأقدامُنا كالعدوّ الذي نحن نحمِلهُ بسراويلِنا

وأحلامُنا كالدبابيس

نخزنها تحتَ أجفانِنا

فليسَ بمقدورنا أن ننام

**

من دونما رغبةٍ بالحياة

سُحبنا إليها بحبلٍ

ولو خيّرونا

لكنا أذبنا أصابعَنا في صَهير الحديد

لم نكُ نعلمُ في لحظات الصِراع

بأنا نذوبُ على النار مثلَ الجليد

لقد خدعتنا قِوانا

فلم نكُ نعلمُ أن مفاتيحَ قلعَتِنا في الوريد

******

أنفضُ بعد الحريق السُخام

أعود إلى البدء

أجمعُ أشلاءَ ذاكرتي في حقيبة

أرقّعُ أثوابَ عُمري الهريء

وأمضي لحتفيَ مثلَ الرصاصة

منطلقاً للأمام

تُمزّقُ صدري الغصون

فلا أتلفتُ خلفي
لأني أخافُ من الهاوية
كما القِدرُ تغلي
وتقلِبُ مِجرفةُ النارِ فيها العِظام

**

أنا مُجبرٌ للرحيل
فلي موعدٌ ليسَ يُخلفُ معْ قاتلي
سأكسِرُ طوقَ الأسار
وأبحثُ عن خطواتي التي سَبَقتني
وأبني قِلاعاً لأمني
أسوارُها من غبار
أما صديقي الذي من زجاجته

كان يسكبُ في مقلتيّ النهار

والذي لم أكنْ أقهرُ الخوفَ

من دون أنْ أستعينَ بما في حقيبتِهِ من رُجُوم

والذي أتسلقُ كنتُ على كتفيهِ

وأشهدُ كنتُ بعينيهِ إذ تتعرّى النجوم

فقد ذابَ كالضوءِ في قدَحٍ من غيوم

بيتٌ في أور

لم اقتنعْ

بأنّ ذاكَ البيتَ في أورَ لإبراهيم

فقبلَ عامٍ

كنتُ قد رأيتُ إبراهيمَ في دائرة الأثار

وكان يحتجّ على أملاكِهِ

تُعرضُ – دونَ إذنه –

في السّوق للإيجار

لم ألتفتْ في حينها

لجُرعة القهر التي في صوته

تطفحُ بالمُرَار

لأنني من قبلِهِ

ياما اجترعتُ الصخرَ والأحجار

وبعدَها علِمتُ أنّ الوحيَ قد دعاهْ

فباعَ ما يملكهُ

ولم نعد نراه

لكننا نسمعُ أنّ الحَرَسَ البَحريّ

في سواحل اليونان

أرجعَهُ للبحر

فهو جاءَهَا من دونما استئذان

وعندما تجمدُ خمرُ الريح في دوارق الشتاء

وتشخر النجومُ تحتَ مِعطفِ الصحراء

يستنطقُ المُنقبونَ في أقداحِهم سَحَائبَ البُخار

ويكتبونَ كلّ ما تقصّ للريح شفاهُ النار

**

وجاء في الأنباء

أنّ الناسَ في حَوران

قد رشّحوهُ قائداً لهيئة الأركان

ولم يزل ترشيحُهُ في مكتب الرئيس

يخافُ أن يعلنهُ في ساحة المدينة

يخافُ أن تُرجعَهُ

إلى الصناديق يدٌ أمينة

خوفاً على الكُرسيّ

أن يُحرقهُ من تحتِهِ إبليس

لكنهُ الطوفان

قد جرفَ الرُعاةَ والخرفان

وصبّتِ العطورَ من إبريقها

على الجموع

زهرةُ السكينة

ولم يزل مفتشو الأثار

يهدّدونَ الزمنَ الهاربَ بالحبس

إذا أنكرَ ما عليهِ

من ضرائب العقار

**

وقيلَ أنّ زوجَهُ قد أُسِرَتْ

في مَسجد الإمام

وكان كلّ ليلةٍ

يُرسِلُ مَظروفاً إلى السماء

يطالبُ الله بأنْ يُلزمَ أهلَ الحَلّ والعَقدِ

بأنْ يحترموا النظام

ويَتبعُ النيلَ الذي قد عادَ من مَصَبّهِ

يزحفُ للوراء

ما دام ممنوعاً على شاربهِ المُضيّ للأمام

وكان كلّ ليلة

يطلّ من نوافذ الصحراء

مستقبلاً مِن (غزةٍ) رائِحَة َالشواء

وآسِفاً لأمّةِ الأعرابِ

كلّ قمّةٍ تكرّرُ الأخطاء

من ذلك اليوم ِازدرى عِبادة َالأصنام

واتخذ السماءَ بيتاً دافئاً

يدرأ عنهُ نوبة َالزكام

أما إذا ما عجزَ الدليلُ أن يقودهُ

في طُرُق الفِرار

فربما يُسلّمُ (البوليسَ) جَرداً كاملاً بقادة الثوار

وهكذا قد دَخلَ السوقَ

لكي يحتكرَ الأحلام

ولم تزلْ مَجارفُ التنقيب في دائرة الأثار

تبحثُ عن مِلعَقةٍ

تُطعمَ َ ُ للناس بها عَصيدَة َالأخبار

**

أما بنو نبينا الكريم إبراهيم

فإنهم إنخرطوا في لُعبَة الإرهاب

وحاربوا شعوبَهم

لأنها تأنف

أن تقتسمَ الجيفة َ

في الوجر مع الذئاب

وحللوا جِلدَ بَني أدمَ أن يُسلخَ

أو يُقصّ في أثواب

ألناسُ في أحداقهم صاروا يصبّونَ سَخينَ القار

خوفاً إذا ما التفتوا

أن يُمسخوا أحجار

ولم يعد من أحدٍ يذكرُ إبراهيم

إلا وقال : إنّ في ذِمّتِهِ لي ثار

فسَارَة ُالتي قضتْ

خمسة َألافٍ من السنين في مِحراب

صارتْ تخافُ الوَصمَ بالكُفر

إذا ما ألقتِ الحِجاب

ولم تزلْ دائرة ُالأثار

تُرمّمُ البيتَ ضحى

وفي المسا تجرفهُ الأمطار

**

وإبراهيمُ لم يزل يهيمُ في البحار

يدفعهُ التيّارُ للقرصان

والقرصانُ للتيارِ

ولم تزل دائرةُ الأثار

تطلبُ دَيناً باسمِهِ

في ذِمّةِ التجّار

جوع

تقبضُ في راحتها الأرضَ وما عليها

وتشربُ البحارَ

والغيومَ

في أكواب

وتحتَ خفّ قلقٍ مُحاذِر

تُعبّيءُ الدروبَ في حقيبةِ الأثواب

كأنها جاءتْ إلى الحياة مِن مَسارب الإعصار

عبّتْ من الشهد

بقدر ما سقتْهُ الناسَ من مرار

كعّتْ من الكؤوس

ما يُسكِرُ آلافَ الثعابين

وما يُليّنُ الأحجار

واليومَ من مُقلتها

تُطلقُ أفعى الثار

**

وبعدَ أن ثقّبتِ العالمَ

مثلَ دودةِ الحرير

فاليومَ من أحشائها

يُسمعُ للجوع صدى زئير

حرامي بغداد

في هزيع الليل

ألقيتُ إلى سوركِ حبلي

طامعاً أن أسرقَ البدرَ الذي

يحرسُهُ ُ حشدُ سِباع

كنتِ تغفينَ

ويغفو تحتَ اثوابك مخموراً من الشّهدِ شُعاع

فإذا جاءَ الضحى

وانكشفَ المخبوءُ

لا تبكي على السرّ المُذاع

أنتِ ما دُمتِ ببغدادَ

إذن فاحتملي كفيَ

أن تعصرَ من كرمة نهديكِ الخمور

فإذا واريتِ تحت الثوب عنقودَكِ عني

أو حبستِ الغيمَ في كيس الفصول

فأنا تمشي ورائي

أينما أمشي الحقول

في جيوبي النهرَ

والجسرَ

وموتى الضفتين

والمها قد أطفأتْ أعينها النجلاءَ أنفاسُ الضباع

شنقتْ أنشوطةُ الدخان فتياتَكِ بغدادُ

وجرّتْ لبحارِ الغضبِ الأعمى شِراع

**

بعدَ أيامٍ

سيُنهي عند أبوابي قطارُ القمر المتعب

رحلاتِ المتاهاتِ الحزينة

ناشراً دخانهُ المغسولَ بالضوء

على شَعر السهول

فاطمئني

أنّ احلامَكِ في كفّ أمينة

فأنا لصّ صدورٍ ونحور

والنواعير التي أتعبتها حَملاً ، وسكباً

سوف يحتال عليها مَلَكُ الحبّ

فيستبدل بالأمواه ماساتِ الثغور

أنا لو شئتُ

لعبّأتُ بكيس كلّ نهدٍ في المدينة

إطمئني

فجيوشي لم تكن يوماً ذئاباً

بل بدورٌ في ثياب من حرير

عندما أطلقها

تسقط راياتٌ

وتنحلّ حضاراتٌ

ويُلقى المَلِكُ المخمورُ من فوق السرير

******

إنني لصّ الأماني

أسرقُ القبلةَ

مهما حُبستْ داخل أسوار القلاع

كاشفاً وجهي لعينيّ النهار

دونَ ان اصبغَ وجهَ القمر الغافي بقار

دون أن أخفي نواياي َ بقفاز

وليلٍ

وقناع

آهِ بغدادُ ، لكم أتعبتني

كلما فتّحتُ صندوقيَ

كي أطلقَ اطيافَ حبيباتي ، وعُمري

خرجتْ منه سِباع

شتاء / 2001

قاع المدينة

- 1
مَسَحَ الدمَ عن نصلِهِ
ووارى وجوهَ المدينةِ خلفَ ملامحِهِ بسِتار
(وهيَ ذاتُ الوجوه التي إمّحتْ
بعدَ أنْ مُزجتْ كالمعادن في جَفنَةٍ
وأذيبتْ بنار)
وفوقَ السُطوحِ التي تتشعّبُ مثلَ السراديب
مُخفيةً سرّها في صُفوف ثيابْ
غسّلتها الخادماتُ بأدمُعِهِنّ
وعلقتها بحِبال السُباب)
تسللَ يرزمُ في صُرّةٍ
ظلماتِ قرونٍ من الإنكسار
ويمضغُ آمالهُ اليابساتِ مُنقّعَةً باللعاب
كانَ في قُرعة الموت يُلقي بآخِر سَهم
وينسجُ حولَ فرائسه شَبَكاً
وهو يُنسِلُ من فمهِ اللزج خيطَ السّرَاب

- 2
أعودُ
كما كنتُ مِن بعدِ كلّ هزيمة

أجلِدُ نفسي بسُوط القصائدِ
أحسُوا بخمّارة الياس دمعي
إلى أنْ تُمَجّ الكؤوسُ
وأدمِنُ هذا الشراب
فتصيرُ الهزائِمُ لي ديدناً
معها أتبادلُ دورَ الضحايا
وقد يعتريني السأم
تعِبتُ من الدوران بطاحونةٍ فارغة
وفيّ مِن الأمس يُعولُ جرحٌ
أفتّقُ جُرحاً سواهُ إذا ما التأم
لتظلّ القياثيرُ من أمسها تستعيدُ النغم
فكأنّ الجراحاتِ - في غُربةِ الروحِ - خيرُ الصِحاب
ومِنْ ثقل ما أنا أحملُ من هفوات
أودّ بأنْ أتنازلَ عنها لمَن خالفوني
وألقي الملامةَ في أوجُهٍ كنتُ أجهلها
واصفّي معَ المَيّتينَ الحساب

3 -
ألإضاءةُ صارخةٌ
ألكاميراتُ تدبّ على سِكَكٍ
كوحوش حديديةٍ
وهيَ تقضمُ ما تتلقّطُهُ دونَ فم
ألحُشودُ - التي لم يُثِرها
سوى أنْ تُغادِرَ أكفانَها المُدُنُ الميتة-

تتقدّمُ ، حيثُ الضياءُ الذي يتصاعدُ
مثلَ الفقاعاتِ
بينَ السقوفِ وبينَ السحاب
يختلطُ المِلحُ بالقيح
والصدأ المُترسّبُ بالذكريات
يُدخلُ مِحفارَهُ في الرُؤوس الصَمَم
ألكهرباءُ تئِزّ
ألشوارعُ تخلعُ اثوابَها
لتلوّحَ منذرةً عابريها بأنّ العمائرَ محمومةٌ
وتعاني من الإرتجاف
تتوالدُ من بُقعة الضوء بقعةُ دم
تتداخلُ فيها ، وتبلعُها
ويُفجّرُ جَمعَ الفقاعاتِ فوقَ الرؤوس
دبوسُ الخراب
**
نِصَابُ المَشاهِدِ لم يكتمل
فإذا الضوءُ ما انزاحَ
وانطفأتْ أعيُنُ الكاميراتِ
ولمّتْ بأكياسِها
ما طفا فوقَ موج الضجيج
سعالي السكينة
وطوّتْ تماثيلَها في الحَقيبةِ مُخرجةُ الحَفلِ
أو سحَبَتْ بالسلاسِلِ من خلفِها قاطراتِ الضباب
وانسَلّ من حضروا في الثقوب لِقاع المدينة

سيُعلِنُ أخِرُ مَيتٍ
أعيدَ إلى القبر ثانية دونَ رغبتِهِ
إكتمالَ النِصاب

- 4 -
لم تكنْ تلكَ أخِرَ ميتاتِنا
قبلها نحن مِتنا كثيراً
ومن بعدها سنموتُ
ولم نكُ نشعُرُ في كلّ واحدةٍ بألم
كلما سقطتْ نجمةٌ
شطبنا على دفترِ الدائنينَ رقم
كلما فرغتْ كاسَةٌ
ملأتها أيادي الندم
بعدَ أولِ رشفةِ طلّ
سيُنبتُ في طيّةِ الروح
أشواكَهُ الدامياتِ العذاب
فنُبحرَ لله
فوقَ مراكبَ مأهولةٍ من رقاب
نتوسّلُهُ ان يُحاربَ عنا
ويُجرَحَ عنا
ونحنُ بحربِ المقاهي
لُعَبّيْ مدافِعَنا بالسُباب

5 -

إنـها رقصةُ الموتِ
مستمتعينَ نواصِلُها دائِرينَ ببركة دم
فليسَ نرى غير ما لا يُرى
وليسَ نُحِسُ بما يتساقطُ من لحمِنا
تحتَ دَوسِ القدم
ورائحةُ الدم تصرخُ من تحت اثوابنا
وتدعو إلينا الذئاب
فمتى في خفايا الدهاليز يُفتحُ باب ؟
ومتى يُطلَقُ المَيّتونَ من السجن ؟
مَلّوا
ومَلّ الدبيبُ
ومَلّ الملائكةُ الناطِرونَ
وهم يحملونَ السلاسِلَ فوقَ مناكِبهم والسياط
وَمَلّ بُيوتَ العناكِبِ ، والظلماتِ العَدَم
ولمّا تزلْ تتصيّدُ أفواهُنا الخاشِعاتُ ذبابَ السأم

ستنطفيءُ حرائقهم وتتوهّجين

على شفتيكِ تذبل زهرة ُالنُدمّان

فأخجل من سقايتها ،

وياما قبلها احترقتْ بساتينٌ

ولم يشفعِ لها أنّ الورودَ توائمُ النيران

جنودٌ قبلنا عادوا من الميدان

فلِمْ أنتِ احتجبتِ تنادمين ملائكَ النسيان ؟

كأنّ جميعِ من عشقوكِ

أو قتلوكِ

قد مُسخوا حصىً في حائط الأزمان

ثيابُكِ كالسواري البيض

تمخرُ قي عُباب القهر والأحزان

ثيابُكِ تلكَ

أم أكفان ؟

وفي شفتيكِ غيماتٌ

ستُمطرُ عندما تغفو على نهديكِ فاختتان

طغاة ُالعصر قد ماتوا

وما زالتْ وحوشُ الحلبةِ الجوعى

وريثتَهم على التيجان

**

جنودُ الفتح قد عادوا من المَيدان

بنصر يُشبهُ الخذلان

نعم عادوا بلا رايات
نعوشاً دونما أموات
ثيابُكِ مثلَ غيماتٍ تُعصّرها يدُ الأهات
وفي المنفى قِطاراتٌ
تشقُ الليل في حذر
مخافةَ أنّ ألافَ التوابيت التي حَمَلتْ
سينهضُ مَن بها ناموا من الأموات

**

على تيجان أعمدة الشوارع
ينزلُ الليلُ المُحمّلُ بالشموع وبالغمام
يتلمّسُ الأبوابَ مثلَ اللصّ بالأهداب
يحجبُ وجههُ خلف اللثام

وبصماتي على الجُدران

لا دخان نار الحرب تمحوها

ولا الأيام

لقد بَهُتتْ

وما زالتْ على الأحجار

كنقر خلفتهُ الكفّ حين استلتِ المسمار

غنائي صرخةُ المَكبوت

تُرجّعها الحوائط

مثلَ أرواح قُتيلَ صعودها حُبستْ

مع الأموات في تابوتْ

فماضيّ الذي قد عشتُ

يهدرُ لم يزلْ نهرا

وما قد ظلّ من عُمري

فليس سوى صدى ذكرى

**

جموعُ عناكب سودٍ

تدبّ على مسيل الدم

تغلق منفذ َالأضواء

إذا ما نِمتُ تفجؤني

وتثقبُ جفني النعسان

تقضم طيّعَ الأحلامِ والأهواء

فما زالتْ تفحّ زجاجة ُالفانوس

تحت لحافيَ الدخان

**

أخيراً عُدتِ للأغصان

تُحيطُ بكِ الأفاعي الرُقط والذؤبان

مُطاردةً

بأفواج من الأحداق والأظفار والأسنان

موزعةً

كأنكِ كنتِ ألافاً من النَسَم

معاً لُمّتْ بكفّ الغيب في طينة

ففي نار المدى عيناكِ عصفوران

طارا خوف سكّينة

ومن اثوابك البيضاء تعبق باقةُ الريحان

لذا كنا تقبلنا انينَكِ مثلَ نفحِ الطيب

وصيّرنا لهُ الأسماءَ قنينة

شباط / 2005

سياجُ البيت

لم يكن يعلو

سوى بضعةِ أشبارٍ عن الأرض السياج

وترانا عَبرَهُ

نصهرُ في بوتقة الودّ

قلوبَ الناس أغراباً

ليرتدّوا أقارب

عندما تنحبسُ الأضواءُ في الغرفة

نثغوا مثل قطعان النعاج

لم نكنْ نُؤمِنُ أنّ البيتَ يُحمى برتاج

**

كان للجيران غِزلانٌ كَوَاعب

يخترقنَ البيتَ من جُدرانه

مثلما يخترقُ الإشعاعُ ألواحَ الزجاج

عندما نضجرُ

ندعو لكؤوس الشاي

أفواجَ السحائب

**

بَيدَ أنا خشيةَ السُرّاق علّينا السياج

فغدونا

مثلَ من يحبسُ في قنينة الخمرة نفسه

لا نرى من أحد

وإذا صحنا على العابر

ظنّ الصوتَ يأتي من بعيداتِ الكواكب

صارتِ الأنفاسُ في أعماقِنا تعفنُ

والأضواءُ تصّلبُ في بطن السراج

**

هكذا

نحن حَمَينا البَيضَ من سطو الثعالب

غير أنا

في جُحُور البيتِ أصبَحنا أرانب

مراثي الأحياء

مِن مَنقع
عبرَ الدهاليز التي تصِلُ الحروبَ ببعضها
ما عادَ كُثرٌ مِن صِحاب
ركبوا مناطيدَ الغيوم ، وحلّقوا
وهناك ذابوا مثلَ كَوم المِلح في قِدر الغياب
عادتْ بكيس – ربما – أكوامُ عظم
أو ثياب
أو حفنةٌ هي من رسائِلَ
مزقتها في الطريق لأهلها
عينُ الفضوليّ التي تعوي
وتنهشُ كالذئاب
ليلٌ خفيّ الوقع يسحبُ خلفَهُ
بسلاسل الظلمات قاطرةً حديد
وبقيّةٌ من جُثّةٍ تأتي بمظروفٍ
وختم بالبريد
ظلّ الأحبّةُ ينطرون على نوافذ صَبرهم

حتى تهشّمتِ العيونُ كما الزجاجُ
وهرّأ الصبرُ الحصير
يتوسّلونَ
ويُرسلونَ بريدهم خلل الدموع
ويُعلّقونَ العُمرَ
مثلَ معاطفٍ مثقوبة بمشاجب الصَبر المرير
لكنّ بابَ الله لم يُفتحْ
ومن عليائها سقطتْ على الرامينَ أحجارُ الدُعاء
هيهاتَ تُفتحُ باليد الشّلاءِ أبوابُ السماء
**
ألصبحُ أقبلَ فانهضي
نعصَرْ بكأس الشاي اثوابَ الحِداد
فضروسُنا أولى بلحم قلوبنا العجفاء
من دود التراب
ريحٌ مُغَبّرةٌ
تواري أخِرَ الأنفاس من جسدٍ
تُمزّقهُ شظايا الإنتظار
وحُطامُ اضلاع تصرّ صَريرَ باب
ألذكرياتُ العاصِفاتُ هناكَ تنفخُ في الرّماد
مَرّتْ قطاراتُ الضحايا في القُرى
فتراكضتْ من خلفها الأشجارُ تصهلُ كالجياد
كَبُرَ اليتامى
والأيامى في السواقي
من دموع الأمس يسكبنَ الجرار

فغدتْ مياهُ الريّ قار
وكعادة المُشتاق ،
بعدَ غيابها عنا
تعودُ الحربُ في ثوبٍ جديد
واليومَ عادتْ بالضحايا
لابسينَ ثيابَ غيبتهم
فوجوهُهم ممحوّةُ دَعكاً بصابون الوجوم
جلسوا على الغيم المَطير
فاوشكتْ من صبرهم
أنْ تلمسَ الأرضَ النجوم
وبرغم ما قد غيّبوا بغيابهم
وبرغم ما أبكَوا
فهم ليسوا سوى أشباح اوهام تحوم
وتحومُ فوقَ عبيرِ ذِكراهم سَعَالي الطائرات
فكأنها في موتِهم
تقتادُهم أسرى إلى موتٍ سواه
وكما الذئابُ النازفاتُ
بطيّة الأثوابِ تنهشُ بعضَها البعضُ الكُلوم
عادوا
وعادَ الليلُ يقتادُ الأنينَ بسُوطِه
ــقَودَ السبايا ــ للصدور
الكلّ قد عادوا عُماة
يتلمّسونَ إلى السراديب العميقةِ دربَهم
تُلقي أياديهم على الشمس الحسيرة ثوبَ سَكتَتِهم

وتُغلقُ منفذَ الأملِ الأخير
**

وهناك
خارجَ مَنقع الامواتِ
يغطِسُ اخرونَ إلى الرؤوس
من دون أن يتمرّدوا حتى بنظرة
فكأنهم يخشَونَ لو فتحوا نوافذَ صَبرِهم
أنْ عَبرَها تنسَلّ كالغربان حائمةُ القُبور
وكانّ خوفهمو من الحرب التي ستجيءُ دوماً
ظلّ يسعرُ كاللهيب ، وفوقَهُ
يَغلُونَ ظلوا كالقدور
ورحى الحروب على المصائرِ
لم تزلْ بيدٍ تدور

شياطين نائمة

تلك أيامي التي غادرتها

عادتْ معي تغفو على ذات السرير

ورسالاتي التي مزقتها

عادتْ إلى نافذتي

غيماً مَطير

لم يعد يسترني صمتي

فأسراري تناديني بالصوت الجهير

لم أعد أستطيعُ أن أنسى

فمهما ابتعدتْ عن فوهة البركان أقداميَ

ردّتني لها أيدي الزمان

وجهكِ النافذُ كالمِسمار في ذاكرتي

أيقظ َفي روحيَ شيطانَ المكان

ثم قد أطلقه في غرفتي

فامتلأ البيت دخان

******

عادني الماضي

وها نحن على منضدة الحاضر

نحسو ذلك الكأس القديم

رُبّ حَبل من حَديد

كنتُ قد أفلتّهُ

لكنني عُدتُ له

يتركَ من خلفي اثر

كلّ أسواري التي شيّدتُها من أضلعي

قوضتها من (كمان) الأمس رنّاتُ وَتر

هيَ في الشُرفة تغفو

ليلةَ القرّ على كُرسي المعاقينَ

فقد ظننتْ من الإنصافِ

أنْ ليس يبيتُ الناسُ

من دون قمر

لم أعد أقوى على النسيان

فالعصفُ عن الأوجه قد ألقى الغطاء

منحَ الميّتَ عزماً ليصيحَ

مطلقاً من فمه المطبَق ِمن دَهر حَجر

كلّ ما حولي له اليوم نداء

ألعواميدُ خِرافٌ

في براري الليل تثغو

والضحى يوقظ مَوتاهُ بسُوطٍ من ضياء

صدى قاطرةٍ بعيدة

أيامَ كنا ضائعين

لما تكن أقدامُنا لتطيعنا

فإذا صعدنا للسطوح

تظلّ تنطرنا هنالك في الحُفرْ

جعنا كثيراً

فالتهمنا البابَ والمزلاج

تهنا كثيراً

فاعتصرنا في حناجرنا حَجَر

وتلفتتْ للخلف أوجُهُنا فلم تجدِ الطريق

**

أليومَ ما عدنا نسائلُ :

كم تقصّفَ فوقَ جذع العُمر من أغصاننا

أو كم تهاوى

تحت أقدام السنين من الثمر

آهاتنا سَكنتْ

وندوبُنا التأمتْ

لكنّ في أفواهنا

لما يزل مِلحٌ من اللحن القديم

لما يزلْ في روحنا بعضُ الشّرَر

******

كلّ التماثيل التي

كانت تزاحمنا الوقوف على المِنصّة

هَدّتْ معابدَها الزلازلُ واللصوص

حتى الضحى

ألوانُهُ بهتتْ لفرط الغسل في طشت الدموعِ

قطَعَتْ مياسِمَهُ سكاكينُ القدَر

أما الذين بقاطِرات الموت قد رحلوا

وفي أكفانهم أخذوا القمر

حملوا بسَلات الثياب إلى الصَدى أجسادَهم

وظلالُهُم

ظلتْ هنالك في الحدائق تَنبتُ كالشجر

ألنافخون بالجمر

بيننا كانوا يروحونَ ، ويغدونَ

ولكنْ صوتهم كان بعيداً

مثل همسٍ

حرّرتهُ قبضة صخرية من بطن واد

حبسوا في دورق أنفسهم

علنا نُوهمُ أنْ أثوابهم باقة ورد

إدّعو أنا احترقنا

واستحالَ الودّ أكوامَ رماد

كانتِ النيرانُ في أثوابهم

ودّوا بأنْ نُعدى بها

من أجل أن نكتسحَ العالمَ قضماً كالجراد

هكذا هم حبسوا أنفسهم كالقمل في أثوابهم
فبقوا في معزل عن مسقط الضوء
يُقيمونَ سدوداً أينما حلّوا
سدوداً من عِناد
**
لم نكن نعبأ بالقنّاص
فالطلقةُ لا تُرعبُ أسرابَ العصافير
كما يُرعبُها نابُ الضجر
نحن كنا واحداً
يشتبهُ الأمرُ إذا سرنا معاً
حتى على الظلّ الذي يطلقه
في إثرنا ضوءُ القمر
تعبٌ يُمطِرُ أحجاراً على الهاماتِ
يسّاقطُ في الأحداق

يستعجلُ في الأعمار ساعاتِ الأفول

عندما الأرساغُ فُكّتْ من أيادينا

وقد بانَ بأنّا إفترقنا

أشعلوا النيران في أثوابهم فرحاً

أدخلوا في ثُقُب المفتاح أعناقَ الفضول

سمّموا فوقَ فِراش الشمس أزهارَ الحقول

ليس هذا آخرَ الرقص

ولكن – ربما – أوّلهُ

إبرةُ الشكّ هيَ الضابط للإيقاع

إذ تهتزّ

تهتزّ ملايينُ الإبر

لم نكن حين افترقنا في خِصام

نحن كنا نخدعُ الوحشَ الذي يقتادهُ

في رحلة القنص القدر

**

أنا من أشباحِ أياميَ لم أهربْ

ولا منكِ

ولكن كنتُ كالأعمى الذي يقبسُ

من بركانهِ الخامدِ

نيرانَ الظفر

شاشةُ الغيب أتتني بتصاويركِ من أقصى الدُنا

نائمةً كنتِ على أفرشة الغيم

وكانَ الفجرُ من إبريقهِ

يسكبُ في عينيكِ نجماتِ السَحَر

حينَ غادرتُ مقاهي الرعبِ

في أمتعتي لملمتُ أكداسَ وجوهٍ شاحباتٍ

وكراسي الخشب المصبوغ بالآهاتِ

والكأسَ الذي يُطلِقُ من أبخرة الشاي

شياطينَ الخدر

لم أقل أتعبَتِ الأحمالُ كتفي
كنتُ أستذكِرُ أيامي كنارٍ أكلت أحطابها
وسأبقى راحلاً
ما دُمتُ لم ألقِ بنيرانيَ حملي
وجوازاتِ السفر

**

يا رفاقَ النار ما زلتم على ديدنكم
تُحرقونَ الغابَ من عود ثقاب
ثمّ تُخفون أداة الجُرم في نزف الشقائق
كلكم حين رأيتم ناركم فينا صرختم :
(إنهم يحترقون)
(إنهم ينطفئون)
لم تكُ النيرانُ في أثوابنا

بالرغم من أنّا كما السِندانُ مطروقٌ وطارق

لم نزل باقين

فالوهم الذي أحرقكم

هيهاتَ أن يُحرقنا

خمرُنا قد أهرقتْ

لكنّ ريحَ الخمر ظلت في الدوارق

غزوات

إخواناً كانوا

لكن حين اغتسلوا بالماء الأسن

صاروا أعداءا

مَلّوا النومَ على أمواج النـهر الساكن

مَجّوا طعمَ القُبلـة

فوقَ صُحون الليل الآمن

فاتخذوا الأشلاءَ غِطاءا

قتلوا بعضهمُ بعضاً

غاصُوا

في قطن الفُرُش المنقوعةِ

بدماء أخوّتِهم

كانت أعينُـهُم مَحضَ ثقوب

شقتـها في أوجههم للغلّ حِراب

وأصابعُهُم أنصَال سَكَاكين

كلّ سُقاة الحانـةِ أشباهُ مَجانين

وسُكاراها ماعوا سُكراً

فلقد شربوا من تيزاب

******

ذهبَ الأباءُ لحَرب الأرحَام

سبَحوا

حتى ازدادوا وَسَخاً في نـهر الأوهام

وعلى الشُرفة مَن ينطرُهم

(بمنـاديلٍ) من نتن ِالدولار

رجعوا

وعلى الرايات المنصورة

بُقعٌ خاثرةٌ من قيح العار

لم يعرف أحدٌ حِصّتهُ في ميراث الأجداد

ألافٌ مَرّتْ والميراثُ بقبو الأسرار

لمّا فتحَ الأحفادُ صناديقَ الماضي

خرجتْ منها أفاعي الثار

**

بعدَ سنين

تطفِيءُ أمطارُ الزمن الحَدَقُ

وبألآفِ الماشينَ على كرسيّ

والمسنودين بعُكّاز

تمتليءُ الطُرُقُ

فإذا ذكَروا الأباءَ وغزوتَهُم بَصَقوا

2006

من جبالِ كردستانَ صَرختُ : أحبّكِ

عَبرَ التضاريس التي نُحتتْ بإزميل الدماءِ

يُعِدّ عُشّاقُ السلام

لكلّ مَن في الأرض مشروعاً لقبلةْ

وتلمّ كردستان أزهارَ السحاب

وتسوطُ قطعانَ الجبال

محروسةً بالحبّ

فكيوبيدُ نقّعَ بالرّضاب الحُلو نبلهْ

ولذا أحبّكِ

حدّ اني في كؤوس الشاي اسكبُ مقلتيكِ

مُدافتان بنصف كوب من عِتاب

مَن يا تُرى سيُحبّ مَن أدمتهُ مِطحنةُ الغياب ؟

ولمن تُرى سأقودُ قطعاني ؟

وفي شفتيكِ أنهارُ السراب

******

قد كنتُ قبلاً

حين أغطس تحت اوحال الوساد

هيهات أطفو دونما حبل وغواصينَ

واليومَ اسألُ نجمتي :

ماذا اقترفنا كي نعاقبَ بالسُهاد ؟

وهل ان كردستان تُرجعُ

شعلة َالأعمار من كيس الرّماد

وهل ان قبلتيَ التي خمّرتها بالعطر تُسكرُ عاشِقَين

مِن (بيرمكرونٍ) أرى الشمسَ التي

شَرّتْ على حبل الشعاع الرخو ارواحَ الشباب

والزابَ جُرحاً فاغراً

هيهات يُسلمُ ضفتيه إلى الرُقاد

كُحلٌ

ورمّانٌ

وصاب

كُرديةٌ بعثتْ رسائلَ من عبير

للهائمين

ألحالمينَ

يُنسّجون من الضياء لعُريهم ثوباً حرير

ولِدتْ على ذكرى الأباطرة الذين أتوا

وبالأقدام قد لبسوا الطبول

لكنهم قد غادروا

فوقَ الحجارة يسحبون رؤوسهم مثلَ الذيول

وتعلمتْ من حزنها الجبليّ

أن الدماءَ على قياثير الحجارةِ رنّمتْ لحنَ الخرير

لم تنسَ أنّ الفجرَ موعدنا

رغم الجموع

على المناكب

تحمل الوطن القتيل إلى الشُتات

لكنها ما أن أعادتهُ

نمتْ في نعشِهِ الخشبيّ أغصانُ الحياة

لم تنسَ أن بلابلَ العُشاق

تقفز فوق وديان اللغات

وبأنّ أيدي العاشقين

ستهدّمُ العَمَدَ التي رَفعتْ سقوفاً من غيوم

فدماؤنا كنثيث غيمات

ستُنبتُ

أينما سَحّتْ عناقيدَ النجوم

ما تبقى من الحريق

1 – غابة الإسمنت

أللّيالي هَرّبَتْ في سِترتي أحجَارَها الثلجيّةَ الرّوحِ

كأكوَامِ دَرَارٍ زائِفاتْ

الليالي بَارِدَاتْ

وأنا مُهتريءُ الأثوابِ ، دامِيها

ألاويها ، وتلويني تنانينُ الرياحِ

شفتيْ قد أسلمَتْ أغنيةَ الخُرسِ

لأفواهِ الجراحِ

حَوليَ الجُدرانُ تنمو

مثلَ أشجارٍ مِن الإسمنتِ

تمتصّ طَشيشَ النورِ مَصّاً بشفاهٍ يابسَاتْ

لم يَعُدْ لي مِنْ صَديقٍ

فسِياطُ القدَرِ الرّعناءُ تعوي في الليالي الداجياتْ

أنا مُحتاجٌ إلى دِفئِكِ

فالعُمرُ سُباتْ

أنا مُحتاجٌ الى الليلِ الذي رَغمَ نُعاسي

مَشّطتْ كَفاهُ شَعرَ الظلماتْ

أنا مُحتاجٌ لأبكي

عَلِقتْ ما بَينَ أهدابيْ غيومٌ مَاطِراتْ

فخُذيني مِثلَ طِفلٍ في يَدَيكِ

إنّ أحزانيْ مناجلْ

ليسَ مِن دونِكِ أسطيعُ الغناء

فلقد أودَعتِ في أقفاصِ أضلاعيَ سِرباً من بلابلْ

**

في رَحِيلي الدائِمِ المَوصولِ

طوّيتُ ابتساماتِ حبيباتي

وعبّأتُ الحَقيبة

وَبحَربيْ

قِدْتُ جُنداً مِن شِفاهٍ وعُيونٍ في كَتيبة

كُنتُ كالأعمى الذي يَحمِلُ في الليلِ الشموع

فاتبعي نبْضاتِ قلبي

لم أزلْ أجلسُ حيّاً

وسطَ ساحاتِ الجحيم

أنا مُحتاجٌ لأن تعزُفَ كَفاكِ

على هُدبيَ ألحانَ الدموع ؟

2 – ألليالى :

أللياليِ نِسوَةٌ

بالأسوَدِ المنقوعِ دوماً بدمٍ مُتّشِحاتْ

خلفَ نعشِ القمر المقتولِ غَدراً مُعولاتْ

أللياليِ بَارداتْ

جَسديْ المُهترِيءُ المرقوعُ ما عَادَ يَقِيني

وقِطارُ العُمْر قادتهُ إلى التيهِ سَعالي العاصِفاتْ

بَرّدٌ كالطلقاتْ

يَثقُبُ الرُوحَ

ويُردي الوَقتَ

أشلاءً من القطنِ تغطي الطُرُقات

يَتُها الغاباتُ ما عَادتْ لنا فيكِ عِشَاشٌ

بعدَما أصمَتْ عُيونُ الأخوَةِ الأعداءِ طيرَ الذكرياتْ

**

لم أكُنْ ظمآنَ ، لكنْ

أظمأتني نَغَمَاتٌ من خرير

أنا لا تُشبعني أنـهارُ شَهدٍ

قَدْرَما يُشبعني مَصّ الثغور

عندما جئتُ إلى النـهر لكي أشرَبَ

فوجئتُ بأنّ الوحشَ

يُلقي بخِراف ِالمَوج ِ

في مَاءِ القُدُور

هكذا نحنُ على مَائدة ِالنهر وَقَفنا غرباء

هكذا دَارَ علينا نَادِلُ المَوتِ بكأس ٍمن دماء

هكذا النَهْلَة ُمِن دِجلةَ

صارتْ تَضرَمُ النِيرانَ في عُشب الصُدُور

وغدا المِرجلُ يَمّاً

ودِلاءُ اليَمّ كِيرْ

يا بلادي

ستمَلّينَ مِن الشمس ِالتي

يكسِرُها الفجرُ على رأسِكِ

كالبَيض ِالعَطِن

وستحتارينَ

ماذا سوفَ تختارينَ من مِيتاتِكِ العِشرينَ :

مَوتَ الخنق ِفي دَنّ الخُمور ؟

أم سُقوطاً من غُيومٍ هي نشْقاتُ عُطور ؟

أحزُمي الأمرَ على الخُسْرَان مِثلي

واسحَبي بالحَبل من خلفِكِ للغربةِ ألافَ القبور

3 – وتر مقطوع :

أنا مُحتاجٌ إلى عينيكِ

كي أغسِلَ احزانيَ في بَحر الدموع

أنا محتاجٌ إلى الهُدبِ الذي

يَكنُسُ عن شُبّاك ِأحلامي الغيوم

أنا مُحتاجٌ إلى دفئِكِ

كي أضمَنَ عُشّاً للنجوم

طُرُقي مُوحِشَةٌ طولاً ، وعُتمةْ

وأنا يُتعِبُني

أن أحمِلَ الليلَ على كَتفيَ وَحدي

مَنْ سَيُردي بوسَاداتيَ غِيلانَ السرير ؟

ويصُدّ الغربةَ الذئبيةَ الأنيابِ عن قلبي الصغير ؟

**

بوحُكِ القادمُ من أقصى الدُنا

يعصِرُ في أذني الكُرُوم

فاعذِريني

لم أجد غيرَكِ من يحمِلُ حِملي

أنا لو خُيِّرتُ

ما سَوّيتُ من أرصفةِ الدربِ قياثيرَ

عليها تعزُفينَ – العُمرَ - ألحانَ الضياع

ولقد أهرَبُ

لكني على كَتفيْ معي

نازفةً أحمِلُ أشلاءَ الهموم

مُؤثِراً أسكَرُ بالسُمّ النقيع

هكذا واريتُ في جوفيَ سرّي تحتَ أكوامِ التراب

لم أكنْ أعلمُ أني إنما وارَيتُ نفسي

إنّ أمثالي يَمُوتونَ إذا ما حُبسوا خلفَ قِناع

أعذِريني

فلَكَمْ يُحزنني

أنْ تركَبي الأهوالَ في بحرِ الولوع

أعذِريني

لم أجدْ حينَ تدحرجتُ من القمة

مكتوفاً بأثقالي وعُمري

غيرَ كَفّ مِنكِ

مُدّتْ من قميص ِالغيبِ كي تسنُدَ ظهري

أيّ ظلمٍ

إنني أهرَبُ من خوفي إليكِ ؟

أيّ ظُلمٍ أثقُبُ الشمسَ بظِفري ؟

4 – ذنوب جميلة :

عندما تعلو مياهُ المَدّ

والزورقُ كالحَلوى يَذوبْ

في لُعَابِ القمرِ السّكرانِ مِن فَرْطِ الشُحوبْ

تتهادَينَ كَنسْمَاتٍ أتَتْ من أخِرِ الدُنيا

لكي تثقُبَ أبوابَ القلوبْ

عندما يَكتُمُ - هذا الوطنُ المذبوحُ - من صَرْخاتِهِ

أخِرَ ما جَزتْ سُيوفُ النارِ مِنْ عُشبِ السُهوبْ

تأخُذينَ النخلَ للغربةِ

زحفاً فوق أسلاكِ الحُدودْ

لم يكن ذنبي

سوى أنيَ أرسلتُ لِمَحبوبيَ

في الغربةِ قلبي بالبريد

وأنا أحتاجُ أن أُكثِرَ من هذي الذنوبْ

**

رَجعَ القاتلُ

- من بعدِ زمانِ الدمِ – خِلاً

والضحايا من دِما بعضهمو بعضاً

يعبّونَ بكاساتِ الحروب

جامع الخلفاء

ببابكَ يوماً أنا ما وقفتُ
ولم تتوقف ظلالي
التي خوفَ أن نتفارق قيدتها بسِوار
فقد كنتُ أنأى بنفسيَ
عما يُخبّيءُ أهلُ العمائِم تحت عمائِمِهم
بهُدبيَ أكنسُ
ما يتراكم فوق زجاج الضحى من غبار
وأمشي على حَدَسي
مُغمضَ العين
فوق الشِفار
ولكنّ بابَكَ كان يُحوّم فوقي
كَنسر جناحاهُ من حجر وحديد
يفتح صندوقَ اسراره
ويُحرّرُ أسرابَ أطيابهِ
فإذا بالمُنادين في السوق من طربٍ
– كالطيور – يطيرون
في سُحُبٍ من عَرَار
لكنني منذ أن رحلَ الحنفيّ جلال

تآلفتُ – في صُحبةٍ – مع بابكَ والأسيجة
وصرتُ بيمناي
آخذها كلّ صبح إلى نزهة في الجوار
مُجتنباً ما يُخبّيءُ أهلُ العمائم تحت عمائمهم
فاصبح بابُكَ عيني
أحَرّرُ بلبلَ روحيَ عبرَ مصاريعِهِ
واشهدُ منه المنائرَ
تُطلقُ مثلَ الصواريخ في رحلةٍ للمَدار
وصِرتُ أقلّبُ في دفتر الصمت
بحثاً عن الكنز
بين خرائطَ قد خطها الحنفيّ جلال
وأودعها في صناديق وحشته
ثمّ القى مفاتيحَها في البحار
******

نعم ،
بعد أن أطفأ الموتُ صوتَ المُغني
أنا صِرتُ أصغي لنَوح السياج الحديد
على نغمات النهاوند
يُرسل أوطاننا في طُرودٍ
لِمَن هُجّروا بالبريد
وأتبعُ ظِلاً
طواهُ ،
وأودَعَهُ تحت صخرة مَدفنه الحنفيّ جلال

ولكنهُ غادر القبرَ تواً بدون عمامته
فنفّضَ أكفانهُ
وتيمَمَ بالضوء
مُنسكباً من سواقي النجوم بآنية الطرقات
وقامَ يُصلي
فلم تكُ كلّ مشاغل ميتتِهِ لتُعوقه
أنْ يواصلَ ما فاتَ من صلواتْ
**
عند الظهيرة
تهوي السماءُ قوالبَ من كونكريت
فتسحق من تحتها يركعون
ومِن قبلُ كانتْ منافذَ
للائذينَ بها من جحيم الظنون
بودي أعيدُ الحياة
بنفخِ المقاماتِ في مَيّتاتِ الحمائمْ
واقتادُها من قبور الظلال
إلى جامع الخلفاء
نسحَبُ من خلفنا بالحِبال قِطارَ الضياء
ونزلقُ فوق تِلال الأهِلّة
مثلَ التوائِمْ
ولكنني مثلما كنتُ دوماً
أحيدُ بسَيريَ عمّا يُخبّيء اهلُ العمائم

قراءات مغرضة

1 - رحلات كوليفر وتداعياتها

(قراءة مغرضة لرواية جوناثان سويفت)

- 1

في مدن العمالقة

(ظلالهم كانت تُغطي الأرض كالغابات

من قبل أنْ يكسَحَ داءُ القَزمَةِ الضمير)

ياما تعرّضتُ إلى الدّعس ، فصوتي

قد نبا في قِشرة البُرّة مغلولا

أنامُ صاحياً

ولا أنفكّ في إغفاءتي أسير

فهل هو الشكّ

الذي يُمسخُ في الوحدة نمراً ضاريا ؟

أم أنّ أشباحاً تراني

غيرَ أني لا أراها

إستعارت دونَ أنْ تسألني أصابعي

وباشرت عزفاً على قوائم السرير

وصار من تلفّتي عنقيَ بندولا

تهرّأت ثيابُ أحلامي بأشداق الكوابيس

وماعَ كالشمع سلاحي بيدي فمطّتِ الظلمةُ ظلي

ليقومَ شاهراً أظفارَهُ غولا

هربتُ من نفسيَ

حتى لا أرى سِكّينةَ الأقدار

كم قد بترتْ من قامتي طولا

– 2

في مدن الأقزام

حَرَمتُ أقدامي من المنام

سِرتُ على هُدبي

فجسمي مَوطِئاً أصبحَ للجموع

وكنتُ رغم النَبلِ أستمريءُ كتمَ صرختي

خوفاً على النجوم لو تقطّعتْ سُمُوطُها تضيع

أرنو إلى عُريي ،

وأكمامي قد صارتْ دروباً ،

وجيوبي بيوتْ

أرنو إلى ظلي الذي يصبغ بالسواد

قُرصَ الشمس في طُشوت

أقولُ : لا بأسَ

إذا هم سَكَنوا من بدلتي الجيوبْ
أخافُ أن يجرفهم إعصارُ أنفاسي
إلى جوفيَ في الهُبُوب
أخافُ إن نِمتُ يتيهونَ بأحلامي
فلا تُخرجهم من بئرها الحبال
أخافُ إنْ صَحَوتُ
أنْ تسحقهم همومـيَ الثقال
والخوفُ مقسومٌ بعَدلٍ بيننا
وهم يردّونَ وحوشَ الخوف
عن عسكرهم بالنِبال

– 3

وبعد عودتي غلى أهليَ سالماً من النيران
ما زالَ بي خوفٌ من العمالقة

أحني لأشباح المباني هامتي

حتى تغيبَ الشمسُ في الأمواج كالحيتان

ولم يزل بي حذرٌ من صُحبة الأقزام

فنملةٌ تمرّ بي

أخلي لها الحيَّ من السُكّان

بالرغم من تمتعي بفسحة السلام

فإنّ في مَصَارعِ الأطوالِ الفَ ظِنّةٍ تُساق

مذ تلكمُ الأيام صرنا واحداً

لم أفترق عن صاحبي الإرهاق

مؤرجحاً أمسكُ حبل الثقة الرفيع

فلا أنا قزمٌ

ولا عملاق

آذار / 2001

2 - علاء الدين ومصباحه السحري

عواصفُ الغبار مذ ألفٍ من السنين

تهيمُ مثلَ الحُصُنِ الحُرّةِ في مفاوز النسيان

تدفنُ ما تُنبتُهُ حدائقُ التاريخ من وردٍ

ومن شوكٍ

ومن أفياء

وما تنثّ الأنجُمُ التعبى على الأعين

من إبريقها الماسيّ من أضواء

وتجرفُ الزمانَ في شاحنةٍ معطوبةٍ

فوقَ صخور الصمتِ للوديان

(في قصرهِ

ألقتْ على أفرشة القاتل جسماً منهكاً

أنهكهُ الركضُ وراء ثعلب الكلام

والمَلِكُ القاتلُ من ملاله في حَيرةٍ

هل يُحرقُ العالمَ ؟

أم يحدّ سيفَ الضجر الأثلمَ بالأعناق والعظام ؟)

وكان في الكهف علاءُ الدين

كالباحث عن ضالتِهِ

يمسحُ

أو يقلبُ

أو يستنطقُ الأشياء

وفجأةً تحرّك الزمانُ من وجومه

كأنها التفاتة سرّيةٌ

أطفأتش الشموعَ في إنائها

وأنطقتْ حجارةَ الجدران

فاستيقظ الماردُ من سُباتهِ

يفركُ جفنين

يكادان من اليباس أن ينكسرا

مَطّطَ جسماً منحتهُ قعدةُ الدُهور شكل الإناء

(لا بُدّ أنْ يُنقعَ كي يلينَ

أو يُبخّرا)

- أنا الأخيرُ سيدي بقيتُ من سلالتي

في موكب الأحياء

مُرني ،

فبعدي سيجفّ الريقُ في ذاكرة الحكايا

وينطوي في مخزن القصّ – كطيّ البُسُطِ – اللسان

فلا الشتاءُ يجمعُ الرواةَ حولَ ناره

وليسَ من راوٍ يردّ الروحَ للنيران

مُرني قصوراً

هي مثل لُجّة البحار

جدرانُها المَاسُ

وحول الماس من جُمانـها أسوار

سجّادةً تطيرُ لا تنفثُ من أعقابها الدخان

كواعباً عارية

خوفاً على نحورها تجرحها الخيطان

- يا صاحبي الماردُ

لا أطلبُ غيرَ حبّةٍ واحدة من دواء

تُخرجُ من جمجمتي الشيطان

أريد محضَ نومة تربو على ثوان

فإنني أشكو – مذ انتبهتُ للدنيا – من الصداع

رأسيَ قد صار خصيمي

يصطادُ بالشباك أحلامي

ويُردي برصاص الألم الطائش ضحكي

فاتسعت داخل جسمي حلبة الصراع

- طلبتَ يا مولاي ما يستحيل

رأسيَ يشكو مثلَ شكواكَ

ومنه انسلّتِ الآلامُ للقناع

قد غِبتُ في المصباح آلافاً من الأعوام

تسقي غيوثُ ظُلمتي

ما بذرتْ في لحميَ الأوجاع

**

وانكفأ الماردُ خائباً إلى مصباحِهِ

لألف عام مُقبلٍ يواصلُ المنام

أيلول / 2001

آخرُ العمالقة

لم يرَ من أحدُ وجهه

فعينهُ تطلّ عبرَ فرجة الغيوم كالسراج

وصدرُهُ

بوابةٌ تُغلقُ سردابَ الصدى

أو هو كالسدّ

الذي يلجم كان جحفل الأمواج

لكنهم قد حدّثوا عنه حديثَ العيون

قالوا : يُقالُ أنه

ينقلُ من كتفٍ إلى الثاني صِغارَ الجبال

يُنيمُها في حُضنه

يزقّها من ريقهِ

وعندما تغفو على سريرها

ينسجُ من قطن الغيوم فوقها ظلال

**

وظلّ في غيبوبة السَراب محضَ هبّةٍ

تعقدُ كالأنشوطة الأركان

لم يرَهُ من أحدٍ

لكنهم قالوا بأنّ غضبةً

تطلّ من عينيه

مثلَ أذرعٍ مشبوكةٍ في عراك

وأنه كان يقودُ الصمتَ في مسيرة صاخبة

ولم تكن تجرأ

أن توقفه العواصفُ المُكشّراتُ عن أسنان

بالرغم من جيوشها المدرعاتِ بالعمى

فهو إذا ما هاجَ

من منخره تندلعُ النيران

قد مسخته لفتةٌ سرّية

وحشاً مهيباً غاضباً

هامته تنفثُ في سحائب الدخان

ولم يكن من أحد رآه

لكنهم قد حدّثوا عنه حديثَ العيان

حين يشحّ الخمرُ في كؤوسه

يسكبُ في أحشائه البركان

**

لكنه ذاتَ مساء موحش

لم يقوَ أن ينفضَ عن أثوابه

رمادَ ما أضرمَ في العالم من حريق

مسترشداً – حاولَ بالضوء الذي في قلبه –

أن يهتدي لبيته

لكنه

ضلّ إلى أعماقه الطريق

فانطفأت في عينه مشاعل الحياة

في غفلة عضّ على لسانه

وماتْ

مشاهد ناقصة

ألنخيلُ العتيقُ يُجدّدُ فيّ شبابَ الظِلال

فيُلبسُني مِعطَفهْ

ألضياءُ المعَذبُ

ينثرُ فوقي دراهِمَهُ المُستديرةَ كالأرغفةْ

طريقي الذي كانَ أقصرَ من خطوتي

مَطّهُ مَللي فاستطالَ

لذاكَ تراني أوزّعُ عُمريَ بالعَدل

بينَ المصابيح والأرغِفةْ

**

تُرى أيّ كأسٍ سأشربُ ؟

كأسَ الندامةِ ؟

كأسَ المَلالةِ ؟

كأسَ الندمْ ؟

لماذا المناضدُ صُنوَ السَنادينِ ؟

تهوي على من يُسامرُها مِطرقة

لماذا تنوحُ الكؤوسُ ؟

كأنّ الزجاجَ يعاني الألمْ

أما يُشربُ الشهدُ يوماً بكأسٍ ؟

أم اني حينَ ظمِئتُ

سكبتُ المساءَ بكاسيَ

مستعذباً بارتشاف الظُلم

**

أحرّرُ رجلي من القفل والسلسلة

واطلقها في الفضاءْ

تطيرُ بأجنحةٍ

انا نتفتُ ريشاتِها من طيورِ الضياءْ

فأسلحةُ القنصِ لن تتخيلني بُلبلاً

لأنيَ لستُ أجيدُ الغناء

تموز / 2006

في منطقة القتل

1 – ألمقبرة

غادروا

يلبسونَ ثيابَ الخيانة مقبرة الشهداء

بعد أن أتعبوا الحجرات بدمع كذوب

علقوا فوقَ أسيجة الفجر قمصانهم

لتُذكّرَ بالقبلاتِ التي فوقَ أكتافهم

طبعتها سياطُ الحروب

وجوهٌ مهاوٍ

إذا ما بكتْ

تمصّ العناكبُ من شفتيها سوادَ القلوب

وجوهٌ

إذا ضحِكتْ في اللعاب تذوب

2 - ألصوى

تُؤرجحُ ريحُ الخيانة

ما ربطوا من حبال

وما تعِبوا

كلما تعِبَ الصبرُ فينا ، تغنّوا

مُتّخذين شخير شراييننا النازفاتِ نغم

كلما طالَ بالصاعدين الطريق

بتروا بمِقصّ الوعود الليالي الطوال

**

لم نعد لنصدّقهم

فالوعود التي أمطرونا بها

أغرقتنا بطين الندم

أصابعهم تحت أثوابنا – حين نغفوا – تفحّ

وأنفاسهم بدمانا تصبّ زيوتَ العدم

ربطونا بسِلكٍ إلى خوفهم

نهشوا ما تعافُ الكلابُ على عظمنا من لحم

إدّعوا أنهم حزمٌ من شعاع

من الشمس قد حرّرتها فؤوسُ الألم

ولكنهم في الحقيقة يُخفونَ كانوا ضمائرهم

من فرط ما أحرَقتْ

حُرقتْ

فاستحالتْ فحم

3 - ألوحش وضحاياه

وراءَكَ تمشي على هُدبها

كالعناكب

حيثُ مشيتَ العيون

وحوشٌ ... وحوشٌ ... وحوش

إذا ما عَيتْ تبلعُ الديناميتْ

وتُفجّرهُ تحت أسنانها بسكون

وحوشُ تُمَلّحُ أحقادها

ثمّ تطبخها بقدور

وتُلبسُ أورامَها كالشيوخِ عقالاً

قد حوّرته الخديعة عن شكل تاج

لتبدو لمن قتلتهم مُنزّهةً من شرور

فيستقبلونَ نواجذها

مثلما ينشقون العطور

**

وحوشُ تنثّ بأثوابكم قملها :

حفنةً من نمشْ

وتجرف من سطح أرواحها برصَ الخوف

تُلقيه فوق مناكبكم برَفشْ

... وما كان ذنبُ الضحايا

سوى أنهم عندما أوقفوا نزفَ أكبادهم

أماتوا صغارَ الوحوش بنار العطش

وما كان ذنبُ الضحايا

سوى أنهم فتحوا ثغرةً في جدار الدهور

وأنهمو

بعد أن حرّروا الروح من قيدها

إستحالوا طيور

4 – ألحدود المستباحة

ألبلادُ خلايا عسل

كلّ صُبحٍ تـهمّ الخلائقُ تلطعها

وعند الظهيرة

تُدني لـها الشمسُ جائعةً بالصحون

**

ألبلادُ تكادُ لفرط نقاوتـها أن تذوب

بَيدَ أنّ الحدودَ خلايا مُثقّبةٌ

ينفذُ الوحشُ منـها

وفي صدرِهِ السُلّ تنفثه نـابحاتُ الذنوب

5 – مصائد

من أبعدِ الكون جاءت

وقد ركِبتْ للطراد صخورَ الحصون

من كلّ لونٍ

ومن كلّ صقعٍ

ومن كلّ قطرة سُمّ

قد اعتصرتها أكفّ الخيانة من حالمات الغصون

**

وحوشُ إذا ما استرابتْ

تُهاجمُ أوجهَها من كُمُون

تجرّ الفرائسَ من رحمِ أقدارها مرغماتٍ

إلى مسلخ للجنون

وفي دَبَقٍ مظلم كالعمى

ليسَ من مهربٍ منه

تطلقُ ما حبستْ تحت أجفانها

من كلاب الظنون

ألغلطة الكبرى

أكبرَ غلطةٍ أنا اقترفتُ في عُمريَ:
أنّي كَبرتْ
أغمضتُ عينَيّ
وأسلمتُ إلى خطوتيَ القِياد
فاقتادتِ الرعدَ إلى نفّاضةِ الرَمَاد

رُبّ غيومٍ أمطرتْ في مقلتي المَاسَ ،
فلمّا غفوتْ
داستْ على حدائقي جحافلُ الزمان
فأحرقتْ ستائري
وكَسّرتْ سنابلي
فامتلأت سماءُ أفراحيَ بالدُخان
أكبرَ غلطةٍ أنا اقترفتُها
أنّي رفضتُ الوهمَ لي بوصلةً
مُقتنعاً ترشدُني في كِبرتي
عُكّازةُ العميان
******
كان على كفيَ ألا تقطعَ الأوتار
حتى وإن تهشّمتْ قيثارتي
أبدِلُها مُتّخِذاً من أضلعي قيثار
كان عليّ أنْ أبتلعَ الأمواجَ والإعصار
واقطعَ الرحلةَ من أوّلها
لكنني واصلتها
أضيفُ من حولي إلى دوامتي دوائر
واشنقُ الشمسَ بهُدبيْ ،
جاعِلاً جسمي لها مقابر
كان على الطفل الذي أخفيهِ تحتَ سِترتي
أن يثقُبَ السِترةَ
أو يجعلَ من أردانها أجنحةً
تحمله مثلَ مَلاكٍ خائفٍ لأمّهِ السماء

لم يكُ من عَدل ٍبأنْ أضمّهُ
لجوقةِ الموتى يلقّنونهُ البكاء
بالغثُ في تكميمه
نسجتُ من أهدابه ستائر
أجبرتهُ ينفثُ من أعماقه
دخانَ ما أمصّ من سكائر
******
صبريَ ما كان جميلاً
وانتظاراتيَ قد ألقتْ بأحماليَ في مستنقع الأخطاء
فبائعُ التجارب المُرّةِ قد ضللني
فباعني مِنفخة الربو
لكي تنفخ في الرمام
روحَ الأمل الخضراء
فصارتِ الثقوبُ في أزرار قمصانيَ
مَصدَري من الهواء
ومثله الدليلُ في مفازة الأقدار
من هُدُبي قد ساقني أغفو
وألقى جسدي لموجة من قار
*** ***
مُتاحة قد ًكانتِ الفُرصةُ:
أنْ أقتطِعَ السنينَ بالمِقصّ ،
كي ألقي بها في النار
لتُزهِرَ الأيامُ من جديد
ويطلعَ البرُعمُ في شُجيرةِ الحديد

لكنها الخيولُ ، قد تمضي إلى المهوى
وفي نيتها الفرار
*** ***
ولم أزلْ أهفو لطفلٍ كُنتُهُ
أرصدُهُ
عبرَ زجاج الزمنِ الأصمِّ في براءةٍ
يصارعُ الرياحَ والأنواء
ولم أزلْ
بالرغم من سَكْينتي أو حذري
أغطسُ حتى الرأسَ في مستنقع الأخطاء
لعله يُذيبُ عن قلبيَ
ما راكمتِ السنون من ثلوجها البيضاء